مجلة مجمع اللغة العربية

الجزء الرابع والثلاثون
شوال ١٣٩٤ هـ
نوفمبر ١٩٧٤ م

دراسات قرآنية

حذف المقابل لما بعد "لا" النافية للمساواة

للدكتور احمد الحوفى

تمهيد :

كثر فى القرآن الكريم نفى المساواة بين شيئين أو أكثر بهذين الأسلوبين :

الأول : أن تتقدم أداة النفى على الفعل الدال على المساواة ، ويذكر بعده الشيئان أو الأشياء التى لا تتساوى ، كما فى قوله تعالى : « لايَسْتَوِى القاعدون من المؤمنين غيرُ أُولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم [1] » .

وفى قوله سبحانه : « قل لايَسْتَوِى الخبيثُ والطيبُ ولو أعجبك كثرةُ الخبيث [2] » .

وقوله عز وجل : « وما يَسْتوى البحران : هذا عذب فراتٌ سائغٌ شرابُهُ ، وهذا مِلْحٌ أُجاج [3] » .

وقوله تعالى : « ومالكم ألاَّ تُنْفِقوا فى سبيل الله ولله ميراثُ السماواتِ والأرضِ ، لايَسْتَوِى منكم مَنْ أنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفتح وقاتل ، أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا مِنْ بَعْدُ وقاتلوا ، وكلاًّ وعدَ الله الحسْنَى ، والله بما تعملون خبير » [4] .

أى لايستوى ثواب الذين أنفقوا أموالهم قبل فتح مكة وقاتلوا فى سبيل الله وثواب الذين أنفقوا بعد الفتح وقاتلوا ، وهذا الشق محذوف يدل عليه قوله تعالى : « أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلاًّ وعدَ الله الحسنى » وقوله سبحانه : « لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون [5] »

(١) سورة النساء ٩٥ (٢) سورة المائدة ١٠٠ (٣) سورة فاطر ١٢
(٤) سورة الحديد ١٠ (٥) سورة الحشر ٢٠

وقد يحل محل أداة النفى استفهام يؤدى معنى النفى ، مثل قوله تعالى : « قل هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلماتُ والنور ؟ »[1] .

والثانى أن يتقدم ذكر الشيئين أو الأشياء المراد نفى المساواة بينها ، ويجىء نفى التسوية بعد ذلك ، مثل قوله تعالى : « أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارةَ المسجدِ الحرام كمن آمَنَ بالله واليومِ الآخر وجاهَدَ فى سبيل الله ؟ لا يَسْتَوون عِنْدَ اللهِ ، واللهُ لا يَهْدِى القومَ الظالمين »[2] .

ومثل قوله سبحانه : « مثل الفريقَيْنِ كالأعْمَى والأصَمِّ والبصير والسَّميع ، هل يَسْتويان مثَلاً ؟ أفلا تذكرون »[3] .

ومثل قوله تعالى : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون »[4] .

وفى كلا الحالين نجد أن النفى تحقق فى هذه الآيات وأمثالها بأداة نفى واحدة.

ولا فرق بين أداة النفى والاستفهام المراد به النفى . لكن فى القرآن الكريم نفياً للمساواة بأُسلوب آخر ؛ إذْ وقعت (لا) النافية مكررة بعد عطف فى ثلاث آيات :

(الآية الأولى)

قال تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصيرُ ، ولا الظلماتُ ولا النورُ ، ولا الظلُّ ولا الحرورُ ، وما يستوى الأحياءُ ولا الأمواتُ ، إن الله يُسْمِعُ مَنْ يشاءُ ؛ وما أنت بمُسْمِعٍ مَنْ فى القبور ، إنْ أنت إلا نذيرٌ »[5] .

فنفت (ما) فى الآية الكريمة الأولى المساواة بين اثنين متضادين هما الأعمى والبصير ، سواء أكان المراد بالعمى والبصر معناهما الحقيقى أم المراد المعنى المجازى لكل منهما وهو الكفر والإيمان ، وهذا النفى جاء على الأُسلوب المعهود .

لكن النفى جاء بعد ذلك فى أُسلوب آخر « ولا الظلماتُ ولا النورُ » و« ولا الظل

(١) سورة الرعد ١٦

(٢) سورة التوبة ١٩

(٣) سورة هود ٢٤

(٤) سورة السجدة ١٨

(٥) سورة فاطر ١٩ - ٢٣

ولا الحرورُ » و « وما يستوى الأحياء ولا الأموات » .

فلماذا جاءت (لا) مكررة بعد الظلمات ، وبعد الظل ، وبعد الأحياء ؟ .

لقد تتبعت ماذكره بعض المفسرين ، وآثرت أن أثبته مرتباً ترتيباً زمنياً ، ثم أتأمله ، لعلنى أرجح بعضه ، أو لعلنى أعرض رأيا آخر . .

١ ـ ذكر ابن جرير الطبرى (٣١٠هـ) رأيين :

أولهما أن بعض نحاة البصرة ذهبوا إلى أن (لا) تشبه أن تكون زائدة ، لأنك لوقلت : لايستوى عمروولازيدفى هذا المعنى لم يجز إلا أن تكون (لا) زائدة .

والثانى أن غيرهم قال : إذا لم تدخل (لا) مع الواو فإنما لم تدخل اكتفاءً بدخولها فى أول الكلام ، فإذا دخلت فإنه يراد بالكلام أن كل واحد منهما لايساوى صاحبه ، فمعنى الكلام إذا أعيدت (لا) مع الواو عند صاحب هذا القول : لايساوى الأعمى البصير ، ولا يساوى البصير الأعمى ، فكل واحد منهما لايساوى صاحبه[1] .

٢ ـ وذكر الزمخشرى (٥٣٨ هـ) أن (لا) لتأكيد معنى النفى[2] .

٣ ـ ونقل القرطبى (٦٧١ هـ) عن الأخفش سعيد أن (لا) زائدة ، والمعنى ولا الظلمات والنور ولا الظل والحرور[3] .

٤ ـ وقال النيسابورى (٧٢٨ هـ) إن (لا) كررت فى الأمثال الأخيرة دون الأول ، لأن المنافاة بين العمى والبصر ليست ذاتية كما فى سائرها ؛ وقديكون شخص واحد بصيرا بإحدى العينين أعمى بالأخرى[4] . .

---

(١) تفسير الطبرى ٨٥/٢٢

(٢) الكشاف ٢٧٣/٣

(٣) تفسير القرطبى ٣٣٩/١٤

(٤) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٢٢ / ٨٤ وقال : قدم الأشرف فى مثلين وهو الظل والحى ، وأخر فى الآخرين ، فذهب أهل الظاهر الى أن ذلك لرعاية الفواصل ، وذهب المحققون الى أنهم كانوا قبل البعث فى ظلمة الضلال فصاروا الى نور الإيمان فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم ، فلهذا الترتيب قدم مثل الكافر وكفره على مثل المؤمن وإيمانه . ولما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب لأن رحمته سبقت غضبه . ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى وشابه الأموات فى عدم إدراك الحق ، فقال « وما يستوى الأحياء » أى المؤمن الذى آمن بما أنزل الله « والأموات » الذين تليت عليهم الآيات ولم تنجع فيهم البينات ، فأخرهم عن المؤمنين لوجود حياتهم قبل ممات الكافرين المعاندين =

٥ ـ وذهب أبوحيان الأندلسى (٧٥٤هـ) إلى أن (لا) زائدة لتأكيد النفى ، وحكى عن ابن عطية أن دخولها يفيد التكرار ، كأنه قال : وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور ، ولا النور والظلمات ، ولا الظل والحرور ، ولا الحرور والظل ، وما يستوى الأحياء والأموات ولا الأموات والأحياء ، فاستغنى بذكر الأوائل عن الثوانى ودل مذكور الكلام على متروكه .

ثم رد أبوحيان على هذا الرأى بقوله : وماذكر غير محتاج إلى تقديره ، لأنه إذا نفى استواء الظلمات والنور فأى فائدة فى تقدير نفى استوائهما ثانياً وادعاء محذوفين[(١)] ؟

٦ ـ أما ابن كثير (٧٧٤ هـ) فإنه لم يعرض للحرف (لا)[(٢)] .

٧ ـ وأما الزركشى (٧٩٤ هـ) فإنه نقل عن ابن عطية أن (لا) دخلت على نية التكرار ، كما سبق فيما نقله عنه أبوحيان الأندلسى[(٣)] .

٨ ـ ثم كتب فضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج بحثاً قيما مفصلا أثبت فيه أن النفى فى هذه الآيات مسلط على الأفراد نفسها ، لأن الظمات الحقيقية الحسية متعددة متفاوتة قوة وضعفاوشدة وخفة ، وكذلك الظلمات المعنوية التى جعلت تلك تمثيلا لها وهى الضلالات ، فهى أنواع متفاوتة أيضاً ، وكل من النور الحسى المعهود والمعنوى الذى هو الهداية والرشاد له أفراد متفاوتة قوة وضعفا .

ووحدالأعمى والبصير لأنالمراد أن أحد الجنسين لا يساوى جنس الآخر من جهة العمى والبصر ، ولعل فردا من أحدهما قد يساوى الفرد الآخر من جهة أخرى .

وكثرالكلام فى اقرار الظل والحرور ، وإنما جمع الظلمات ووحد النور ، لأن الحق واحد والشبهات كثيرة ، وإنما جمع الأحياء والأموات ، لأن المراد أن أحد الصنفين لا يساوى الآخر، سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد

(١) البحر المحيط ٧/٣٠٨

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٥٢

(٣) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٣/١٢٣ و ٤/٣٥٧

ومثل هذا يقال فى الظل والحرور ، فهما مختلفان حسياً شدة وخفة ، أى أن لكل منهما أفرادا متفاوتة فى ذلك . وقد قال العلماء إن المقصود بهما فى الآية الإشارة إلى المصير الأخروى ومايلقاه الإنسان فيه من الجزاء ، فهما تمثيل للثواب والعقاب ، وكل من الثواب والعقاب درجات متفاوتة تفاوتاً عظيما .

وكذلك الحال فى الأحياء والأموات وما جعل الأحياء والأموات تمثيلا لهم وهم المؤمنون والكفار ، كل منهم ذو مراتب ودرجات . وإذا كان ذلك كذلك أمكن أن يحمل نفى الاستواء فى كل واحد من هذه المذكورات على أنه نفى استوائه فى نفسه ، أى نفى تساوى أفراده ذاتها ، ويكون هذا أولى وأرجح مماقيل من زيادة (لا) لأنه يحفظ أصالتها ، ويوفر عليها معناها[1] .

تعقيب

١ - هكذا تبين أن الآراء السابقة تدور فى عدة اتجاهات : لأن (لا) إما زائدة أوشبه زائدة ، وإما لتأكيد النفى ، وإما أصيلة والنفى منصب على كل كلمة بعدها لأن الظلمات درجات ولأن النور درجات ، وإما أصيلة تؤدى معنى مفهوما من السياق ولكن ما بعدها محذوف دل عليه المذكور .

فأما القول بزيادتها أوشبه زيادتها فإنه مرفوض ، لأن القرآن الكريم وهو ذروة البلاغة أسمى من أن يقع فيه حرف مزيد أو كلمة مقحمة .

فإن قيل إن الزيادة لغرض بلاغى كان هذا القول دليلا على الأصالة واستبعادا للزيادة ، لأن الغرض البلاغى لا يتم بغير ماقيل إنه مزيد .

وأما القول بأنها لتوكيد النفى فإنه مردود بأن هذا التوكيد لم يجىء فى نفى المساواة بين الأعمى والبصير . فلماذا جاء فى نفى المساواة بين ما بعدهما ؟ ولو أنها مكررة لتوكيد النفى لوافق جميع المفسرين على هذا .

وأما الحكم بأنها أصيلة جاءت لنفى المساواة بين ماتدل عليه كل كلمة بعدها من درجات ودركات فإننى أرى أنه لا يلائم الغرض من الآيات الكريمة ،

(١) البحوث والمحاضرات لدورة المجمع اللغوى الثالثة والثلاثين ٨٣ .

لأنها تمدح الإيمان وترغب فيه وتشوق إليه ، وتذم الكفر وتنفر منه وتحذر من عواقبه بتمثيل حسى لاشك فيه هو أن البصير والأعمى لايتساويان ، وأن النور والظلام متناقضان ، وأن الظل والحر متضادان ، وأن الحي والميت متباينان، فكذلك الايمان والكفر .

ومعنى هذا أنه ليس المراد من الآيات الكريمة أن النور درجات وأن الظلام دركات ، ولا أن الظل طبقات وأن الحر طبقات ، ولا أن الأحياء أصناف وأن الموتى أصناف ، لأن هذا معناه أن المؤمنين ذوو درجات وأن الكفار أصحاب دركات ، وهذا حق ، لكنه لايفيد فى هذا المقام مقام الترغيب فى الإيمان وبيان آثاره الطيبة الحميدة والتنفير من الكفر وتبيان جرائره الخبيثة .

وإذا كان المؤمنون أصحاب درجات عالية تناسب إيمانهم بالله وطاعتهم له ، فإن الكفار لايدينون بأنهم أصحاب دركات تناسب كفرهم وأعمالهم ، ولو أنهم آمنوا بهذا فإن إيمانهم به مقطوع عن التفرقة المحسوسة بين هداية الإيمان وضلال الكفر التى مثلتها الآيات الكريمة بأربعة أمثلة لايمترى أحد فى الإقرار بتباينها .

٢ – وكنت قد فكرت طويلا فى هذا الأسلوب ، فسنح لى رأى استرحت إليه فلما تتبعت آراء المفسرين وجدت ابن عطية قد أشار إلى هذا الرأى[١] ، فازددت به اقتناعا وهو أن – والله أعلم – فى الكلام محذوفا دل عليه السياق ، والكلام بغير حذف هو : وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور ، ولا النور والظلمات ، ولا الظل والحرور ، ولا الحرور والظل ، وما يستوى الأحياء والأموات ، ولا الأموات والأحياء .

ومن عجب أن رأى ابن عطية ظل مجهولا أو مغمورا هذا الزمان الطويل .

وقد يبدو هنا سؤال هو : إذا كانت المساواة بين الظلمات والنور قد نفيت فلماذا كرر هذا النفى بين النور والظلمات؟

وإذا كان نفى المساواة بين الظل والحرور قد وقع فلماذا كرر هذا النفى بين الحرور والظل ؟

---

(١) كما ذكر أبو حيان الأندلسى فى رقم (٥) والزركشى فى كتابه البرهان ٣/١٢٢

وإذا كان نفى المساواة بين الأحياء والأموات قد حدث ، فلماذا كرر النفى بين الأموات والأحياء ؟

أليس فى النفى الأول ما يغنى عن الثانى ؟

والجواب عن هذا أن المراد بنفى المساواة بين الظلمات والنور كما فى الآية الكريمة هو الدلالة على أن الظلام لايستطيع أن يتسامى إلى النور فى إشراقه وهدايته وجماله ونفعه وارتياح النفوس له وشوقها إليه ، ومن هذا يتبين أن وجه الشبه مقصور على النور .

أما نفى المساواة المقدر بين النور والظلمات فإن المراد منه أن النور لايمكن أن يهبط إلى ما يتصف به الظلام من قتام وتضليل ووحشة ومجلبة للضيق والكآبة والحيرة والمعاطب ، فوجه الشبه هنا مقصور على الظلام .

كذلك لايمكن أن يهبط الظل إلى درك الحر اللافح الخانق الداعى إلى الضجر والضيق والسقم ، فوجه الشبه هنا مقصور على الحر ، ولا يمكن أن يسمو الحر إلى مقام الظل البارد المنعش الشارح للصدور الملائم للحياة الطيبة والعمل المثمر ، فوجه الشبه هنا مقصور على الظل .

وكذلك لايتنزل الحى إلى أن يساوى الميت فى فقدانه للحياة ومخافة الناس من جثته ومسارعتهم إلى دفنه ، فوجه الشبه هنا مقصور على الميت ، ولا يستطيع الميت أن يشبه الحى المتحرك النامى المستمتع بمظاهر الشعور كلها ، أى أن وجه الشبه مقصور على الحى .

ومن هذا كله يتبين أن الإيمان والكفر متباينان أشد التباين ، فلا المؤمنون يشبهون الكفار فى جحودهم لربهم وفى ضلالهم وفى معصيتهم لخالقهم وفى غضبه عليهم وفى عقابهم المتوقع ، ولا الكفار يشبهون المؤمنين فى إيمانهم بربهم وفى اهتدائهم لطاعته وفى رضوانه عليهم وفى ثوابهم المأمول .

والغرض من هذا توكيد المخالفة وزيادة توضيح المباينة كما نقول : ليس الناجح كالراسب ولا الراسب كالناجح ، ونحن نريد أن الناجح لا يشبه الراسب فى إخفاقه وحسرته ، وأن الراسب لايشبه الناجح فى ظفره وبهجته .

والحذف هنا ضرب من البلاغة القرآنية التى تستغنى بالمذكور عن المحذوف المفهوم .

وقد يسترعى الانتباه أن الآيات الكريمة نفت مساواة الأدنى للأعلى فى حالتين هما العمى والبصر والظلام والنور ، ونفت مساواة الأعلى للأدنى فى حالتين هما الظل والحرور ، والحياة والموت .

وحينما نقدر المحذوف يتقدم الأدنى تارة ويتقدم الأعلى تارة ، والغرض من التكرير بتقديم الأدنى مرة وتقديم الأعلى مرة توكيد المنافاة ، وإبطال المشابهة على أى وجه من الوجوه ، سواء أتقدم الأعلى أم تقدم الأدنى .

ولاشك أن الأسلوب الشائع فى القرآن الكريم وفى غيره يجرى على نفى مشابهة الناقص للكامل ، ولكن بعض الآيات الكريمة جاءت لتنفى عن الكامل شبهه بالناقص ، مثل قوله تعالى : « إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرتُ لك ما فى بطنى مُحَرَّرا ، فتقبلْ منى إنك أنت السميع العليم . فلما وضَعَتْهَا قالت رب إنى وضعتها أُنثى والله أعلم بما وَضَعَت ، وليس الذكر كالأُنثى ، وإنى سميتها مريم وإنى أُعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم[1] » .

فتحسرت لأن أملها فى أن يكون مافى بطنها ذكرا أخفق ، إذ كانت نذرته محررا لسدانة المسجد الأقصى ، وعبرت عن حسرتها بأنها وضعت أُنثى ، وبأن الذكر فى قوته وجلده على العبادة وقدرته على خدمة البيت ليس كالأُنثى فى ضعفها ولينها وقلة احتمالها ، وكان المعهود أن تقول : وليست الأُنثى مثل الذكر .

ومثل قوله سبحانه : « يا نساء النبى لستُنَّ كأَحد من النساء إن اتَّقيتُنَّ فلا تَخْضَعْن بالقول فيطمَع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا »[2] .

جاءت الآية الكريمة على هذا النسق ، ولم تجىء هكذا : ليس أحد من النساء مثلكن .

أى أنكن يا نساء النبى لستن فى شرف مكانتكن وعلاء قدركن ونظرة المسلمين والمسلمات إليكن مثل النسوة الأُخريات فى مكانتهن العادية وافتقارهن إلى

(١) سورة آل عمران ٣٥/٣٦

(٢) سورة الأحزاب ٣٢

فضلكن وسابقتكن وصلتكن برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكذلك قوله تعالى : « أفمن يخلُق كمن لا يَخْلُق أفلا تَذكَّرون[1] » فقدم الأعلى فى نفى المشابهة ، لأن المراد هل يستوى الله تعالى وهو الخالق القوى القادر بآلهة تعبدونها وهى مصنوعة مخلوقة عاجزة عن الخلق وعن النفع والضر ؟

وكذلك قوله سبحانه وتعالى : « أفمن اتَّبع رضوانَ الله كمن باءَ بسَخَط من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير[2] » .

أى هل يستوى من آمن بالله وأطاعه واستحق ثوابه ورضاه بمن كفر بالله وعصاه واستحق سخطه وعقابه ؟

وقوله تعالى : « أفمن وعدناه وَعْداً حَسَناً فهو لاقيه كمن مَتَّعْنَاه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحْضَرين[3] » .

أى هل يستوى من وعدناه ثوابنا الحق فيلقاه ومن عصانا فغضبنا عليه واغتر بنعيم الحياة الدنيا ، وهو فى القيامة من أصحاب النار .

وقوله سبحانه وتعالى : « أفمن كان مؤْمناً كمن كان فاسقاً ؟ لايستوون[4] »

وقوله عز وجل : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض؟أم نجعل المتقين كالفُجَّار ؟[5] »

ففى هذه الآيات الكريمة نفى المساواة أو المشابهة بين الأدنى والأعلى مع تقديم الأعلى فى الذكر .

ولهذا الأسلوب نظائر فى الشعر القديم ، منها قول المرقش الأكبر :

لسنا كأقــوام مطـاعمهُمْ
كسْبُ الخَنا ونَهْكَةُ المَحْرَمْ[6]

فنفى عن الأعلين الذين يتعففون فى كسْب المال شبههم بالأدنين الذين يسلكون إلى كسب المال أى طريق . وكان الأسلوب الشائع أن يقول ليس أصحاب الفساد وانتهاك الحرم مثلنا . ومنها قول معن بن أوس فى شكواه من ابن عمه :

(١) سورة النحل ١٧
(٢) سورة آل عمران ١٦٢
(٣) سورة القصص ٦١
(٤) سورة السجدة ١٨
(٥) سورة ص ٢٨
(٦) المفضليات ٢/٤٠ الخنا : الفساد . نهكة الحرم : انتهاك الحرم أى لا نهجو الناس ليعطونا

ويسعى إذا أبنى ليهدم صالحى

وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم

وكان المتوقع أن يقول وليس الذى يهدم كالذى يبنى ، ولكنه أراد بهذا الأسلوب أن الذى يبنى مجد القبيلة يتصف بالنفع والغيرة والإصلاح والإيثار والشرف فلا يشبهه الذى يهدم مجد القبيلة ، لأنه يتصف بالتخريب والتدمير والحمق والفساد والدمار .

وقول النجاشى فى رده على قصيدة كعب بن جُعَيْل :

جعلتم عليًّا وأشياعه

نظير ابن هند أما تستحونا ؟

فهو يلوم الشاميين على أنهم هبطوا بمكانة على بن أبى طالب إلى منزلة معاوية ابن أبى سفيان ، ولم يقل إنهم ارتفعوا بمعاوية إلى مقام على .

(الآية الثانية)

قال سبحانه وتعالى : « وما يستوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا المسىءُ ، قليلاً ما تتذكَّرون [1] » .

فماذا قالوا فى (لا) هنا ؟

١ ـ اكتفى الطبرى بتفسير الآية الكريمة ، وجاء فى تفسيره قوله : لا يستوى المؤمنون بالله ورسوله المطيعون لربهم ولا المسىء ، وهو الكافر بربه ، العاصى له ، المخالف لأمره [2] .

ولم يذكر شيئا عن (لا) فى هذه الآية .

٢ ـ وصنع الزمخشرى صنيعه.[3]

٣ ـ وكذلك صنع القرطبى [4] .

٤ ـ أما النسفى (٧٠١هـ) فقال إنها زائدة [5]

٥ ـ وأما النيسابورى فلم يذكر شيئا [6] .

٦ ـ وأما أبو حيان الأندلسى فقال إنها كررت لتوكيد النفى ، لأن جملة الصلة وما عطف عليها طالت [7] .

٧ ـ وأما ابن كثير فلم يذكر شيئا [8] .

---

(١) سورة غافر ٥٨

(٢) تفسير الطبرى ٢٤/٥١

(٣) الكشاف ٣/٣٧٥

(٤) تفسير القرطبى ١٥/٣٢٥

(٥) تفسير النسفى ٢٤/٢٥٧

(٦) على هامش الطبرى ٢٤/٥٢

(٧) البحر المحيط ٧/٤٧٢

(٨) تفسير ابن كثير ٤/٨٥

٨ـوأما أبو السعود (٩٨٢هـ) فقال مثل أبي حيان ، وزاد عليه أن المقصود نفى مساواة المسيء للمحسن فيما له من الفضل والكرامة ، وقال : هذا الرأى الثانى هو الصواب ، لأن (لا) هنا أصيلة دلت على أن المسيء لا يساوى المحسن بعد أن فهم من الآية نفسها أن المحسن لايساوى المسيء ، لأن التقدير فى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات[1] .

٩ـثم ذهب فضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج إلى مثل رأيه السابق وهو أن المراد نفى استواء المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنفسهم ، لأن أفرادهم كثيرون متفاوتون فى قوة الإيمان والعمل الصالح . ثم إن المقابل الذى هو المسيء فى العقيدة والعمل له أفراد كثيرون أيضا متفاوتون فى درجات هذه الإساءة ، فأريد نفى المساواة فيما بينهم بقوله سبحانه « ولاالمسيء » .ولاشك أن مجموع هذا وذاك يلزمه انتفاء المساواة بين المحسنين فى العقيدة والعمل والمسيئين فيهما ، فإنه إذا ثبت أن النوع الواحد قد انتفت المساواة فيه نفسه،أى انتفى التساوى بين أفراده فإنه يلزم انتفاء المساواة بين النوعين أوبين أفراد النوعين بالطريق الأولى وهذه نتيجة لايمكن الوصول إليها مع زيادة (لا)[2]

تعقيب

١ ـ هكذا مر بعض المفسرين بالآية مرورا لاذكر فيه للحرف (لا) وذهب آخرون إلى مثل ماذهبوا إليه فى الآية السابقة .

والتعقيب هنا لايختلف عن التعقيب هناك[3] .

٢ ـ والذى أرجحه ـ والله أعلم ـ أن فى الكلام حذفا يدل عليه السياق ، وبغير الحذف يكون التعبير هكذا : ومايستوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات والذين كفروا وعملوا السيئات ، ولا

(١) تفسير أبي السعود ٧/٦٣١

(٢) البحوث والمحاضرات لدورة المجمع اللغوى الثالثة والثلاثين ٨٧

(٣) نفى التساوى بين أفراد ما بعدها لا يحقق الغرض من الآية وهو نفى المشابهة بين المؤمنين والكفار .

الذين كفروا وعملوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات .

أى أن المؤمنين لايشبهون الكفار فى ضلالهم وفساد عقائدهم وسوء أعمالهم والعذاب المعدّ لهم ، فوجه الشبه هنا خاص بالكفار ، وكذلك لايشبه الكفار المؤمنين فى اهتدائهم وصواب عقائدهم وطيب أعمالهم واستحقاقهم ثواب الله المعد لهم ، فوجه الشبه هنا خاص بالمؤمنين ، كما تبين فى الآيات السابقة .

ومن هذا يتضح أن فى الآية محذوفا دل عليه الكلام الباقى وأغنى عنه ، وقد تقدم التفصيل والتدليل والتعليل فى الآية السابقة

(الآية الثالثة)

قال تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أَحْسَنُ ، فإذا الذى بينك وبينه عداوةٌ كأنه ولىٌّ حميم . وما يُلَقَّاها إلا الذين صَبَرُوا ، وما يُلَقَّاها إلا ذو حظٍّ عظيم »[1] .

١ ـ قال الطبرى إن (لا) مكررة ، والمعنى ولا تستوى الحسنة والسيئة ، لأن كل ماكان غير مساو شيئا فالشىء الآخر غير مساويه ، كما أن كل ماكان مساويا لشئ فذلك الشئ مساو له ، فيقال فلان مساو فلانا وفلان له مساوٍ ، فكذلك فلان ليس مساويا لفلان ولا فلان مساويا له ، فلذلك كررت (لا) مع السيئة ولو لم تكن مكررة معها كان الكلام صحيحا .

وقد كان بعض نحويى البصرة يقول: يجوز أن يقال (لا) الثانية زائدة توكيدا ، كما فى قوله تعالى : « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شئ من فضل الله »[2] أى لأن يعلم أهل الكتاب ، وكما قال تعالى : « لا أقسم بيوم القيامة ولا أُقسم بالنفس اللوامة »[3] .

وكان بعضهم ينكر قوله هذا فى « لئلا يعلم أهل الكتاب » وفى قوله « لا أقسم بيوم القيامة »[4] .

٢ ـ وقال الزمخشرى إن الحسنة والسيئة متفاوتتان فى أنفسهما ، فخذ

---

(١) سورة فصلت : ٣٤ ، ٣٥
(٢) سورة الحديد : ٢٩
(٣) سورة القيامة ١ ـ ٢
(٤) تفسير الطبرى ٧٤/٢٤

بالحسنة التى هى أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان ، فادفع بها السيئة التى ترد عليك من بعض أعدائك .

ومثال ذلك رجل أساء إليك إساءة ، فالحسنة أن تعفو عنه ، والتى هى أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه ، ويقتل ولدك فتفتدى ولده من يد عدوه ، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولى الحميم مصافاة لك .

وقيل (لا) مزيدة ، والمعنى ولاتستوى الحسنة والسيئة [1] .

٣ ـ وقال القرطبى نقلا عن الفراء إن (لا) صلة ، أى لاتستوى الحسنة والسيئة ، وأنشد :

ماكان يَرْضَى رسول الله فعلهم

أو الطيبان أبو بكر ولا عمر

أراد (أبو بكر وعمر) أى لايستوى ما أنت عليه من التوحيد وما عليه المشركون من الشرك [2] .

٤ ـ وذكر المنيسابورى أن (لا) زائدة لتوكيد نفى الاستواء ، والمعنى لا تستوى الحسنة والسيئة قط ، ومثالهما الإيمان والشرك ، والحلم والغضب ، والطاعة والمعصية ، واللطف والعنف [3] .

٥ ـ وذكر أبو حيان الأندلسى رأيين : أحدهما أن (لا) زائدة والآخر أنها أصيلة ، لأن الحسنة جنس والسيئة جنس ، فالمعنى إذن ولا تستوى الحسنات لأنها متفاوتة فى أنفسها ، ولا السيئات لأنها متفاوتة أيضا [4] .

٦ ـ أما ابن كثير فلم يذكر شيئا [5]

٧ ـ وأما الزركشى فقال إن (لا) تزاد مع الواو بعد النفى ، كما فى هذه الآية ، لأن استوى من الأفعال التى تطلب اسمين ، أى لاتليق بفاعل واحد ، نحو اختصم ، فعلم أن (لا) زائدة .

وقيل إنها دخلت فى السيئة لتحقق أنه لا تساوى الحسنة السيئة ولا السيئة الحسنة . وقال إنها ليست زائدة عند من قال إن جنس الحسنة لا يستوى أفراده ،

---

(١) الكشاف ٣٩٢/٣ يتفق الرأى الأول ورأى فضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج

(٢) تفسير القرطبى ٣٦١/١٥

(٣) على هامش الطبرى ١٠/٢٥ .

(٤) البحر المحيط ٤٩٨/٧

(٥) تفسير ابن كثير ١٠٠/٤ .

وجنس السيئة لا يستوى أفراده ، وهو الظاهر من سياق الآية : فليست زائدة ، والواو عطفت جملة على جملة [1] .

٨ – وارتضى فضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج ما ارتضاه فى الآيتين السابقتين وهو أن المقصود نفى استواء أفراد الحسنة نفسها ، ثم نفى استواء السيئة كذلك ، فإن لكل من أفراد الحسنة والسيئة أفرادا متفاوتة فى القوة والأثر .

وإذا كان الأمر كذلك ثبت بطريق الأولى عدم التساوى بين الحسنة والسيئة [2] .

تعقيب

١ – تبين أن الآراء التى قيلت هنا لاتختلف عما قيل فى الموضعين السابقين ، فلا مدعاة للمناقشة ، لأن المناقشة السابقة تغنى .

وإذا كان من الحق أن الحسنات متفاوتة القدر والأثر والمثوبة ، وأن السيئات مختلفة الجرم والضرر والعقوبة ، ولهذا جاءت (لا) أصيلة لنفى المساواة بين أفراد ما بعدها ، إذا كان هذا حقــا فإنه لا يناسب ما تتوخاه الآية الكريمة من تبيين الفرق الجسيم بين الخير والشر ، وبين الحسن والقبيح ، وبين الإحسان والإساءة ، تمهيدا للأمر بالحلم والصبر والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة ، لأن هذه المقابلة تستل سخائم النفوس ، وتلين القلوب ، تغرس المودة ، وتوثق صلة الفرد بالفرد وصلة المجموع بالمجموع .

٢ – فأرجح – والله أعلم – أن فى الكلام محذوفا ، لأن أصله ولاتستوى الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة ، أى لا تستوى الحسنة والسيئة فى شرور السيئة وأذاها وإشعالها للضغن والعداء والانتقام ، ولا تستوى السيئة والحسنة فى محامد الحسنة وطيب آثارها وتأليفها قلوب الأفراد والجماعات .

ولا شك أن التعبير بهذه الصورة يتضمن أيضا توكيدا لنفى التساوى بين الحسنة والسيئة ، سواء أكان المقصود محامد الحسنة أم مخازى السيئة أم بيان الفروق العظيمة بينهما كما ، سبق فى الآيات الأولى .

احمد الحوفى
عضو المجمع

(١) البرهان فى علوم القرآن ٣/٧٨ و ٤/٣٥٧

(٢) البحوث والمحاضرات للدورة الثالثة والثلاثين ٨١